الساعة السادسة

إنها أمنيته.. قد لا ترقى في نظرك إلى هذه المرتبة.. وقد تتضاءل لتبدو شيئًا تافهًا لا يستحق منك بعض نظرة.. إلا أن هذا لن يغير من الأمر شيئًا.. المسألة نسبية.. تختلف من عقل إلى عقل.. ومن طموح إلى طموح.. وقد تتغير تبعًا لظروف المرء النفسية.. والمزاجية.. والمكانية!

وقد تتحقق كليًا أو بعضها.. أو لا تتحقق بالمرة.. المهم أن تظل عائشة في الوجدان.. لا تخفت ولا تنزوي.. وأكاد أقول: أنا أتمنى.. إذن، أنا أعيش!

طوَّحتنا الأقدار إلى هذه البقعة من أرض الله الواسعة.. فهي قرية كغيرها من القرى الصحراوية.. تسوّرها مساحات شاسعة من الرمال.. والهضاب.. وتتخلّلها التلال.. كالمقابر.. والرياح لا يطيب لها السكون.. دومًا تدوِّي وتزمجر.. تعصف وتقصف.. ويسمع لها عواء!!.. والأتربة المجنونة تلسع الجفون، وتقذي العيون.. تتخلل الأطعمة، وتغشى الملابس والأغطية.. والشمس الحارقة تلهبنا.. والبرد يكسّر عظامنا.. وظلام الليل يسد أمامنا الطرق والشعب.. والعقارب الغاشمة تشهر أسلحتها، تصر على الانتقام منا!.. والصعوبات تعوق كل أمورنا.. والحنين.. الحنين لا يرحم أفئدتنا من اللوعة والاحتراق.

أمنيتنا جميعًا.. الأتوبيس.. ذلك الضيف الرزين الذي يزورنا مرة واحدة مع مغيب شمس اليوم.. وهو بالنسبة

لنا.. الحياة!.. إذ يذخر باحتياجاتنا.. وكذا أخبار القرى على طول الطريق.. إذاعة متنقلة.. يتيمة.. حيث تتأبى الإذاعات علينا.. كما يحمل صحف الصباح.. وصحف مساء البارحة.. ويُقِلُّ - أيضًا - السيد الزعيم على حد تسميتنا لـ«البوسطجي».. تلك الشخصية الآسرة.. الزائر الحبيب الذي يشرّفنا بطلعته البهية الاثنين من كل أسبوع.. أو كل أسبوعين.. حسب مزاجه!

اليوم.. الاثنين.. أحلى.. بل أهم أيام الأسبوع.. فالأيام هنا لا توصف بالحلاوة.. صدورنا تحمل شعور الفرح والقلق.. والأمل يتراءى لعيوننا.. في هذا اليوم نتناسى كل شيء.. حتى مَعِداتنا.. فنكتفي لها بعشاء الأمس!.. وتتوقف حركة الحياة.. إلا من انتظار المحتوم.

الأتوبيس.. والسيد الزعيم.. والأمنية.. الأمنية جواب.. أو رسالة غرام يفوح منها العطر.. تتلاقى الأعين.. تتحادث بلا موضوع.. مشغولون بلا شغل.. والأفواه لا تردد إلا كلمتين:

- الجوابات اليوم.. اليوم الجوابات!!

نتوق إلى ما تحمله سطور الرسائل.. مئات السطور.. وأخبار تتعدد وتتباين.. ولكلٍّ أثره وصداه.. نجأر بالشكوى.. ولمن نشكو؟!.. ليس إلا أن نتشاكى.. كل يزيح عن نفسه ما يثقل عليها.. فكلنا مطوّحون إلى هذا الوادي الجاف.. فهذا يقول في ثقة أقرب إلى الغرور:

- سيأتيني من الخطابات الكثير كما عهدتم.. وأظنها جميعًا مهمة.. وخطيرة!..

وصوت آخر يقول في توسل:

- ليتني أحظى بخطاب واحد.. من أي إنسان!

ويأتي صوت واهن كأنما يأتي من قبر:

- أعرف حظي مقدمًا.. فلن أحظى بإياها.. وكأنني بلا أهل.

ويرد عليه الواثق المغرور:

- سأعيرك إحداها.

ويضحكان!!.. وشتان بين الضحكتين.

ويداعب ثالث:

- لو كان الزعيم قريبي لأمطرني بوابل منها..

ويضحك أيضًا!!.. وتجد الابتسامة طريقها في الوجوه!!.. ليته يمضي هذا الوقت العصيب.. وتمضي لحظات من الصمت.. وتتجدد الانفعالات.. فتنطلق ضحكات بلهاء.. وهذيان.. وتأملات إلى لا شيء.. كل يعيش في عالمه الخاص.. الفراغ من حولنا.. ودخائلنا مزدحمة.. نظرت في ساعتي.. عقرب الثواني النطاط.. يتقافز كأنه في سباق!

- مهلًا أيها الشيطان.. رفقًا بالحيارى الملهوفين..

كلٌّ يذهب ويرجع على غير هدًى.. كأننا مخابيل.. دقات النطاط.. وعذاب الحيرة.. والهذيان والخيال.. الخيال يرتد إلى الوراء حيث الماضي البعيد.. كنت طفلًا..

أحس ولا أدرك.. وأبي الذي يحس ويدرك.. يذرع «الطرقة» مثلنا.. كأني أراه معنا.. يتكبد ما نتكبد.. وكتابة سوداء على باب أبيض.. تهجيت حروف كلمتيها.. «غرفة العمليات».. أمي وراء هذه اللافتة.. دخلتْ مسجاة على «نقَّالة».. وها هو أبي ينظر إليها.. حدقتاه تكاد تخرج من محجريها.. ووجهه ممتقع.. أسود عكس لون بشرته.. ووصد الباب دوننا.. وارتسم الخوف على الوجه الممتقع.. وأيضًا القلق.. وبصيص من الأمل.. أذنه جهاز استقبال تلتقط كل لفظ وهمس.. وكانت دقات قلبه أسرع من النطاط الثائر المتعجل.. جمدت عيناه على شفتي الممرضة.. وكان وجهها منديًّا بالعرق، وقد علته ابتسامة مطمئنة.. ومع ذلك، بكى أبي.. ظل يبكي.. كنت أجهل سبب البكاء.. لكني كنت أحسه.. وما كنت أدري أن الفرحة تثير البكاء وتسقط الدموع!

الساعة السادسة.. الشمس تأذن بالرحيل.. ما زال الرزين في عالم المجهول!

- لعله تأخر في إحدى القرى!

هذا ما هتف به زميلي.. الذي يعتلي المبنى.. هذا عمله كل اثنين.. جهاز استطلاع.. أو زرقاء اليمامة!.. الصدور تهتز.. القلوب تدب كأنما تعزف إيقاعًا جنائزيًّا!.. كعادة أهل هذه القرية للإعلان عن فقيد!.. وما يلبث أن يعلو الصوت المرتقب.. يتردد صداه في الصدور.. لا يخطئه

أحد.. تتقافز.. تهرول معنا القرية من كل صوب كأنه جيش من الجراد.. لون الرزين الأصفر يملأ عيوننا.. وسرعان ما نندس في الحشد الهائل.. وتشرئب الرقاب لرؤية السيد الزعيم.. أيضًا، لا أحد يخطئه فقد حفر الشوق صورته في صفحات قلوبنا.. نجري ونبحث ونفتش.. ونلتقي كل لحظة.. ونتساءل:

- أين السيد الزعيم؟!

لا بد أنه عند ذلك الجمع.. ونتسابق هنا وهناك حيث المجموعات.. ونلتقي.. وأيضًا، لم يره أحدنا.. لم يبق إلا تلك الجماعة النافرة.. أسرع أحدنا نحوها.. وسرعان ما يومئ لنا متهللًا:

- إنه هنا!!

نلحق به.. وبالفعل، نراه غير مصدقين.. لكنه لا يحمل حقيبة الرسائل!.. ويستغيث الواثق المغرور سائلًا عنها.. ويرد الرجل ببساطة وحزن:

- لقد سُرِقت الحقيبة برسائلها وطرودها.

شهقت الأفواه، وكلحت الوجوه.. ولم ينتبه أحدنا للخائب الذي أردف:

- سرقها أحدهم عندما تشاجرت مع راكب أراد أن يفتش في الحقيبة.. عبث!.. كيف يحدث؟! أليست أمانة سيحاسبني الله عليها.. فكيف أدعها لعبث العابثين.. لقد اختاروني أمينًا.. و..

زحفنا وقد افترشت الدنيا باللون الأصفر الباهـت.. والزرقة على الشفاه.. وانزوى الأمل إلى حين.. وما زلـت أردد في نفسي: أنا أتمنى.. إذن، أنا أعيش!